أوراق من دفتر سجين
الورقة الأولى

ثبّتك الله.. يا أبا معاذ.. فما هي وربي.. إلا أيام

بقلم الشيخ؛ أبي محمد المقدسي

تبدأ الحكاية هكذا ..

صعلوكان يطلان على شارف .. يتخيّران بيتا يعجبهما شكله من بين سائر البيوت .. ثم يتجهان إليه ..

المسألة عندهم غاية في السهولة ، وليست محفوفة بالمخاطر .. فالصيد غالبا ضعيف .. فهما لا يصطادان إلا في الصباح عندما يكون الرجال في أعمالهم .. وإن فجأهما رجل في بيته ، فخط الرجعة سهل محسوب ، فما هو إلا أن يسألانه عن أي اسم في الخاطر ، ثم يعتذران بلباقة ؛ أنهما قد غلطا بالعنوان وينسحبا بهدوء .. لا بد من الحيلة .. فأسلحتهما لا تؤهلهما لمواجهة الأقوياء ؛ فهي لا تتعدى بعض المدي ..

طرقا باب البيت الذي وقع عليه الإختيار ..

ولم يكن كلاهما يعرف أن هذا الباب سيغلق عليه أشباك السجن وقضبانه الغلاظ ، إلى خمس عشرة سنة .. عندما أشهرا مديهما في وجه المرأة لم يكن في بالهما ومخططهما أكثر من السرقة والسلب .. يأخذان ما خف وزنه وعظم ثمنه .. لكن يشاء الله ولحكمة بالغة ، أن يمتحنهما بصيد سهل تناله أيديهما .. فيسقطان ..

فبينما أحدهما يفتش ويبعثر في أغراض البيت هنا وهناك ... إذ عثر على (مسدس) فأمسك به وهزه مزهوا ، ينظر إلى المرأة .. إنها رفقة السوء ، يا أبا معاذ .. أليس قد قيل ؛ (الصاحب ساحب) ، فها قد سحبك رفيق السوء معه إلى غياهب السجن خمسة عشر عاما ..

فما أسرع ان لعب الشيطان بعقليهما لما رأياها تلوذ بصغارها خائفة ، وهم يتصايحون ويبكون .. تقول : (خذوا

كل ما تريدون واتركوني ..) ، إنّ شيئاً مما خـافته لـم يكـن في مخططها ، ولكن كم قد نبهـت الطيـور الصـياد ، بعـد إذ كان غافلا .. إنها شهوة الحيوان ، تتسلط على من تجرد من خشية الرحمن ، فضعف فيه وازع الإيمان .. وكان ما كان ..

كـانت هـذه البدايـة .. شـهوة لحظـات ونـزوة عـابرة يتخللها الخـوف والرعـب والارتبـاك .. حكـم الاثنـان لأجلهـا بعقوبة السلب والاغتصاب ..

ولما كانت عقوبة الاغتصاب هي الأكبر ؛ لزمهما اسمها وصنفها في مهاجع السجن بها ..

ولنـوع القضـية فـي عـالم السـجون أثـر وأهميـة ولـه سمعته بحسب القضية ، فهاهنا التهم أشكال وأنواع .. منهـا الرفيع ومنها الوضيع ، يتفاخر أو يتصاغر بحسبها السجناء ..

ويعلوا بعضهم على بعـض بهـا .. ويتخـذ بعضـهم بعضـا سخريا .. وتمر الأيام والشـهور ؛ ويبـدأ الشـيب بغـزو رأس صاحبنا .

إنه السجن مقبرة الأحياء .. يقول بعض من جربه :

خرجنا من الدنيـا ونحن مـن أهلها فلسنا من الأحـياء فيها ولا الموتى
إذا جاءنـا السـجـان يومـا بحاجة عجبنا وقلنا جـاء هذا من الدنيا
وتعجـبنا الرؤيا فجل حـديثنا عن الرؤيا إذا نحن أصبحنا الحديث
فإن حسنت لم تـأت عجلـى وأبطات وإن قبحت لم تحتبس وأتت عجلى
إلى الله نشـكوا إنـه موضـع الشكوى وفي يده كشـف المصيبة والبلوى

إنه السجن يا صحبي .. إمـا أن يكسـر .. أو يعصـر.. أو يثمر .. إن لم يدخله المرء برصيد إيمـاني ، فهـو فـي عـداد الأموات ..

وفي أمثال هؤلاء قال الله تعالى : ((أموات غير أحيـاء ولا يشعرون أيّان يبعثون))

وإن لم يتعلم منه أو يحيى قلبه فيه ، فسينتقل من مقبرة إلى مقبرة ، ومن موت فيه إلى موت آخر في البرزخ .. ثم في الآخرة .. حياته في سجين التي ليست كهذه السجون ..

وأيّ حياة تلك التي سيحياها في سجين ؟ إنها حياة شر من الموت .. لا يستشعر فيها إلا الألم والعذاب والندامة والحسرات ؛ فالموت خير منها ، ولذلك فإن كل من يدخلها يتمنى الموت ويدعو ثبورا ، لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا ، وادعوا ثبورا كثيرا ..

وتمر أيام السجن وأسابيعه .. والشهور والسنون تترى .. بتكرار مميت .. ليس فيه أي جديد ..

ويضيع العمر .. فما العمر إلا أيام ، إن ذهب يوم ذهب بعض المرء ؛ كما قال الحسن البصري رحمه الله .. وصدق في ذلك .. فقد قال الله تبارك تعالى : ((والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ..)) أجل إن الإنسان لفي خسارة وخسران دائم .. إن لم يتداركه الله تعالى برحمة منه ..

وفجأة وفي بعض أيام تلك السنين العجاف بل الميتة .. يفيق صاحبنا من سباته ويصحو من غفلاته ، فتلمع عيناه ويشرق وجهه بنور الإيمان وتنقلب حياته .. وتتغير أحواله فيحيا قلبه ويولد من جديد بلقيى بعض إخوة التوحيد .. وما أكثرهم في زماننا في السجون ، لقي منهم وعايش في السجن أفواجا وأفواجا، زرفات ووحدانا .. تخرج طائفة ، لتخلفها أخرى رأى فيهم عزة الإيمان وتميّز المنهج وصفاء العقيدة ، وابتلاءاتهم متنوعة، وأحكام سجن كثير منهم كبيرة كحكمه بل بعضها أشد وأقسى .. ومع ذلك فمعنوياتهم عالية وجباههم أعلى لا يطأطئوون الرأس لغير الله ، ولا يعطون الدنية في دينهم .. يتهمونهم بالتطرف والإرهاب والتخريب ، وهم يصرّون إن سئلوا في أي وقت عن قضاياهم أو تهمهم أن يوحّدوها ويقولوا هي :(لا إله إلا الله) .. ثم يبينون ذلك ويشرحونه بحجج ناصعة وبراهين واضحة .. لا يبالون بعساكر السجن أو ضباطه وجلاديه .. ولا يأبهون بأوامرهم أو يلتفتون إلىعجرفتهم .. وقد اعتاد العساكر فضلا عن الضباط أن يقف وينتصب لهم السجناء احتراما عند دخولهم المهاجع كل يوم للتفتيش الصباحي المعتاد .. فضاقوا ذرعا وامتلأت صدورهم غيظا لعدم مبالات أولئك الموحدين بهم .. أو تعظيمهم لهم كما يفعل سائر السجناء .. فهم لا يتعاطون السلام والتحية معهم ،

فضلا عن الوقوف لهم أو التعظيم ، فانقطعوا بعد عن التفتيش والدخول عليهم إلا ما ندر، فقد كانوا يحرجون أمام عساكرهم حين يدخلون على أولئك الموحدين ، فلا يأبه الموحدون بدخولهم إليهم أو يتركون ما هم فيه من قراءة أو درس أو غيره .. ولا يلتفتون إليهم أو يقومون أو يهشون كما يفعل غيرهم ..

صارحوهم بأنهم بريءاؤ منهم ما بقوا جندا للقانون ، وحراسا للشرك ، وجاهروهم بالتبري منهم ومن قوانينهم وطواغيتهم وأربابهم المشرعين ، قطعوا معهم العلائق إلا علاقة الدعوة والبلاغ ، وفصموا كل الوشائج فلا مودة بينهم وبين أولئك الأجناد ، ولا عشيرة ولا جنسية ولا وطنية تجمعهم بهم ، بل كل ذلك مبتور ماداموا قد هدموا التوحيد ، ونصروا وحرسوا وأقاموا الشرك والتنديد .. ((هذان خصمان اختصموا في ربهم ..)) فهم في عدوتين مختلفتين .. قد بدت العداوة والبغضاء بينهم ، وظهرت وبانت ، جاهروهم بها حتى يؤمنوا بالله وحده .. ((فإذا هم فريقان يختصمون..))

وفي السجن اعتاد السجانون والضباط أن يعيّروا السجناء بقضاياهم ويعظونهم ويدعونهم إلى التوبة كموعظة الذئاب للحملان ..

ولذلك تراهم يعلقون في كل زاوية من زوايا السجن آية قرآنية أو حديثا نبويا ، يحث على التوبة من الخطايا والذنوب .. يوجهون ذلك إلى السجناء وينسون خطيئتهم الكبرى التي تفرعت منها وعنها غالب خطايا السجناء .

أما مع إخوة التوحيد .. فقد كانوا يتصاغرون .. ويطأطؤون الرؤوس .. بل ينهزمون ويلوذون بأعذارهم الواهية ، عندما ينكر عليهم الإخوة باطلهم ، ويبيّنون لهم شركهم ، ويدعونهم هم للتوبة إلى الله ، والبراءة من شركهم وإفكهم وزورهم وباطلهم .. ويبينون لهم أن خطايا وجرائم أكثر السجناء ، ما هي في الحقيقة إلا فروع وآثار لجريمتهم النكراء ، المتمثلة بتعطيل شرع الله وتقديم زبالة قوانين الشرق والغرب عليه ، فاهلكوا بذلك الحرث والنسل ، ونشروا الفساد والكفر والضلال في البلاد والعباد .

لقد اعتاد صاحبنا أن يكون الـواعظ دومـا فـي السـجن من أولئك الذئاب .. فمنهـم السـجان والقاضـي والمحـامي والواعظ والخصم والحكم ..

ثـم لمـا أفـاق مـن غفلتـه .. وفقـه حقيقـة التوحيـد .. وعـرف عظـم جريمـة الشـرك ، علـم مـن أولـى بـالوعظ والزجر والدعوة إلى التوبة والبراءة من الذنب .. فقد علّمه إخوة التوحيـد أن أعظـم الـذنوب (أن تجعـل للـه نـدا وهـو خلقـك) ، رواه مسـلم ، والقـوم قـد جعلـوا للـه أنـدادا متشاكسين ، واتخذوا مع الله أربابا متفرقين ، شـرعوا لهـم من الدين ما لم يأذن به الله ، فكانوا بذلك مشركين .

فجريمتهم تفوق كل جريمـة .. فـأين السـرقة وشـرب الخمر والزنا أو الاغتصاب .. ونحوه من الجرائم من جريمـة الشرك ، الذي هو رأس الجرائم ومحبـط الأعمـال ..؟ قـال تبـارك و تعـالى : ((ولـو أشـركوا لحبـط عنهـم مـا كـانوا يعملون)) .

وقال تبارك وتعالى : ((إن الله لا يغفـر أن يشـرك بـه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)) ..

وما هي إلا أن وجد صـاحبنا نفسـه تنجـذب إلـى أولئـك الأخيار ، فهم القوم إن شاء الله ؛ لا يشقى جليسـهم انحـاز إليهم يصلي الجمعة معهـم ، وتـرك الصـلاة خلـف الضـابط الذي يؤم في مسـجد السـجن .. ويتلطـف ليأخـذ منهـم مـا يكتبون .. يقرأه ويقرئه من يثق بهم ..

إذ لإدارة السـجن بيـن السـجناء أذنـاب .. وهـو فـي جاهليته قد تعلـم الحـذر منهـم .. وهـو أولـى بالحـذر الآن .. فكيد أعداء الله بالموحدين ومن يتصل بهـم أشـد وأنكـى .. رأى بأم عينه كيف يعاقبون ويزنزنون ويؤذون من يصافحهم في ممرات السجن أو أثناء الزيارات ..

فكيـف بمـن يضـبطونه متلبسـا بالصـلاة عنـدهم ، أو بسماع دروسهم أو حيازة أوراقهم وكراريسهم المنيرة ..

إن للسجن مسجده وواعظه الضابط الذي يخطب فيـه .. فعلام تتركون المسجد ذي المنبر والمحراب والسـجاد !! وتصلون مع أولئك السجناء في مهجعهم ..؟؟

لا بد من جواب ..!!

هل في الصلاة خلف راهبنا شك ..؟

أم في خطبته الـتي يسـبح فيهـا بحمـد المليـك ويبجـل القانون والدستور ضير ..؟؟

فلا بد من جواب .. أو الزنازن والعقاب ..

علام تقرؤون في كراريس وأوراق هؤلاء السجناء التي تسـفه أحلام دولتنـا وتعـري أركـانه وتكشـف زيـف أربابهـا المشرعين وتفضح قوانينهم وتشريعاتهم..؟؟

حذار .. إنهم مخربون إنهـم إرهـابيون إنهـم تكفيريـون .. !!

((إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهـم لنـا لغـائظون ، وإنـا لجميع حاذرون)) .

ولكـن صـاحبنا لا يـأبه بـذلك التهديـد والإرهـاب كلـه .. وينجذب رغم كل الموانع والعوائـق والعقبـات ، إلـى أولئـك الغرباء .

وتتساقط بين يديه الحواجز.. حاجزا تلو الآخر ..

تساقط حـاجز الخـوف .. فقـد تعلـم منهـم مـا يسـميه العلامــة ابــن القيــم بتجريــد الخشــية للــه أو (بـالخوف أو التعظيم المذهل) .. وهو أن يعظم الموحـد اللــه ، ويخـافه خوفا يملأ جنبات نفسه ويستولي على قلبـه بحيـث لا يتسـع بعد ذلك لأن يتغلغل فيه خوف من سواه..

فخوف الله جبار السموات والأرض يذهله عن الالتفات إلى خوف أوتعظيم سواه سبحانه ..

إذ كل ما يخشى ويخاف ويدعى من دون الله .. هو في الحقيقة : (ليس بشيء) كما قال تبارك وتعالى بعد أن ذكر ((مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء)) وأنهم : ((كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لـبيت العنكبـوت لـو كانوا يعلمون)) .

قال سبحانه وتعالى : ((إن الله يعلـم مـا يـدعون مـن دونه من شيء وهو العزيز الحكيم)) .

وتساقط حاجز سمعة القضية ..

فقد علموه أن الإسلام يجب ما قليه .. وهل كانت سوابق كثير من الصحابة قبل إسلامهم إلا القتل والسلب والنهب والاغتصاب ، ثم ما لبثوا أن صاروا بدين الإسلام وبعزة التوحيد ، قادة الأمم وسادة العباد ، وحازوا بذلك شرف الدنيا والآخرة .. وفتحوا البلاد ودان لهم العباد ، وهاهم اليوم قد صاروا للناس المثل والقدوة والأسوة الحسنة وخير القرون ..

لم يأبه صاحبنا بتلك الحواجز وغيرها فما أحلى الجلوس في تلكم الحلقات ، وما ألذ السماع لآيات الكتاب .. وما أطيب النظر في معالم التوحيد ..

وما هي إلا أيام حتى انقلبت حياة صاحبنا .. وفارق طريق أقرانه وترفع عن سفاسفهم ، وتمثل بقول القائل :

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

عرف أنه ما خلق في هذه الدنيا سدى ولا وجد فيها عبثا .. إنما خلق لغاية عظيمة ، كان في سالف الأيام غافلا عنها .. عرف مصدر عزته وسعادته .. فلم يعد كأكثر الناس في خسر .. بل دخل في جملة من استثناهم الله تبارك وتعالى بقوله : ((إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)) ومن ثم لم يعد يبالي بالسجن أويتحسر بمرور العمر وأيامه فيه .. أليست الدنيا كلها سجن المؤمن كما أخبر بذلك الصادق المصدوق .. ؟؟

وما هي الحياة .. ؟ وأي شيء أيامها ؟؟ خاصة إذا ما قورنت بالدار الآخرة وما عند الله ؟ إنه إن يمن الله عليه بنعمة الثبات على هذا الخير العظيم ، ويختم له بذلك .. فيزحزح عن النار ويدخل الجنة فقد فاز ، ثم ماذا ؟ غمسة واحدة في الجنة تنسيه شقاء أعتى السجون .. وإن صار إلى ذلك ، فأي خسر ذاك الذي ناله ..؟

نعم إن الإيمان يحدث في حياة المرء انقلابا هائلا ..

فيقلب المحن إلى منح .. كما يقلب المكروه محبوبا ، ويجعل العذاب عذوبة .. كما يجعل النقم نعما ، وليس ذلك بالتلاعب بالحروف ..

ولكــن بالإيمــان بــالغيب .. والنظــر فــي العــواقب والخــواتيم وبالصــبر والثبــات والتمحيــص .. حــتى يخــرج المؤمن منها قد نقي من شوائبه وذنوبه كمـا يفتـن ويصـقل الذهب المصفى ..

وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة فعـند اللقـاء ذا الكد يصبح زائلا

فما هي إلا سـاعة ثم ينـقضي ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

أي.. والله ما هي إلا ساعة وبعدها فكأنما ما شقي من شقي ، ولا حزن من حزن ، ولا تعب من تعب .

لقد انقلب صاحبنا إلى ليـث مـن ليـوث التوحيـد وصـار سراجا ينير مهجعه بدعوة التوحيد ..

وكم اهتدى علـى يـده مـن سـجناء صـاروا نعـم الاخـوة والدعاة ، وأذكر علجا كان رأسا من رؤوس الكفر والفسوق والعصيان ، يخشاه أكثر من في السجن ، شرح الله صــدره لهذه الدعوة المباركـة .. وقـف بعـد اهتـدائه للحـق ، يعلـن لأقرانه الذين يرهبهم جل السجناء بل وكثير مـن السـجانين قائلا :

(اسمعوا !! أنا اليوم هداني الله .. ولا أقبل أن أسـمع مسبة الله أو الدين .. ومن سيفعلها سأطأ على شاربه ..) ، كلام يوجهه إلى رؤوس الكفر وأعتى المجرمين .. ولا يبالي ، قوة كانت في الباطل ، أخـذ بهـا الكتـاب بقـوة ، ثـم تـراه عنـدما يسـمع آيـات الكتـاب ودعـوة التوحيـد يبكـي كطفـل صغير ..

وكم اهتدى على يدي صاحبنا مـن أمثـاله الكـثير، أذكـر بعض من اهتدوا على يديه يوما وهم يبشــرونني مســرورين ،بـأن قرابـة الثلاثيـن فـي مهجعهـم صـاروا مـن المصـلين الصالحين .. وأن أغلبهم تحت إمارة أبـي معـاذ ، ثبتـك اللـه وإخوانك يا أبا معاذ ..

يدخل الضـابط وعسـاكره إلـى المهجـع صـباحا .. فـي التفتيش اليومي المعتاد ..

فلا ينتصب لهم تعظيما ، في مهجع أبي معاذ إلا القليــل ..

إنها ظاهرة جديدة عجيبة ..!!

إنهم يزدرون هذا المهجع وأمثاله لسمعة قضاياه ..

فكيف يتجرأ أصحابه على هذا الصنيع ..؟

الضابط يعرف الرأس الموجه لهؤلاء ..

يقترب منه .. وبطريقة اســتفزازية يحـاول إهـانته كمـا اعتاد في سالف الايام .. يسأله وهو يعرف الجواب :

- ما قضيتك .. ؟

يجيبه أبو معاذ : اغتصاب

يسأله مستهزئا :

- ولد أم بنت ..؟

ويـأتي الجـواب واضـحا دون تلعثـم ، ودون أن يحسـب صاحبه لعواقبه أيّ حساب:

- أياً كان ، فهو أهون من الشرك الذي أنتم فيه ..

ثبتك الله يا أبـا معـاذ .. فمـا هـي وربـي .. إلا أيام ..

وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة فعـند اللقاء ذا الكد يصبح زائلا

فمـا هـي إلا سـاعة ثم ينقضـي ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

أبو محمد المقدسي – سجن سواقه
سنة 1418 من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

منبر التوحيد والجهاد

* * *

tth
tth
tth
tth
tth